صورة قلمية

احمد صديق بك

مدير بلدية الاسكندرية

اعجبت كل الاعجاب بالاسكندرية وبما شاهدته فيها من دلائل الرقي والعمران ووسائل الصحة والتنظيم ولا شك عندي في انها اجمل مدينة على البحر الابيض المتوسط وانه ليسرني ان اعلم ان الفضل في ذلك عائد الى صديق بك الذي ما فتىء يسعى على تنظيمها وتجميلها ولن يمضي وقت طويل حتى تصبح ذات شهرة عالمية وتستعيد مجدها القديم محافظ لانكشير

لما يهر الاوروبيون المعاصرون بعظمة المدنية الحديثة ، اهتدوا الى شيء وهو ان هذه المدنية قد ميزتهم على القدماء بملكة النقد والتقدير . فالذين يلاحظون التطور الباهر الذي اكسب الاسكندرية كل هذا الجمال لايستطيعون تقدير الجهود الخارقة التي حققت هذه المعجزة . وحتى اذا استطعنا تقديرها فاننا لاندري الى من ننسبها فانها تؤلف جهاداً عمرانيًّا حقيقيًّا في سبيل رقي المدينة التي كانت ثانية عواصم الدنيا بعد روما

ولقد يكون التقدير ثمرة الذوق المهذب . فان محافظ لانكشير حين زار الاسكندرية اخيراً كانت نتيجة اعجابه الجم بما شاهدهُ من دلائل الرقي والعمران ووسائل الصحة والتنظيم وآيات التجميل انه لم يملك غير الاعتراف بفضل هذه الجهود الى صاحب العزة احمد صديق بك مدير البلدية العام

ولقد كان من حظ الاسكندرية ان ما بذله مديرو البلدية السابقون من الجهود في سبيل رقيها وعمرانها قد أثمر ثمارهُ الباهرة في عهد صديق بك كما اجتمعت لها الدولة الرومانية وعظمتها وقوتها في عهد اوغسطس قيصر . غير ان المزايا العظيمة التي عرفت بها شخصية صديق بك وقوة رأيه في الاوقات التي تعرض فيها مسألة تنظيم المدينة واصلاحها وتجميلها لا يجعل مجالاً للشك في نسبة هذا التقدُّم الباهر الى ذكاء المدير ومساعيه التي جعلت الاسكندرية أجمل مدينة على البحر الابيض المتوسط

ولقد تذكر الآن في كثير من الدهشة والاستغراب ما ورد على الألسن عند توليه ادارة

البلدية التي كانت قد وسبت في لجج عميقة من الفوضى والارتباك لم ينظر وقتئذ الى مزايا صديق بك وقوة شخصيته وذكائه ومواهبه وذوقه المثقف وحسن ارادته نحو تحقيق الاصطلاحات التي تحتاج اليها المدينة ، انما قيل لأول وهلة انه بعد شاب لا يملك القوة الكافية للتغلب على الاختلافات ووجوه التناقض التي لا بدَّ من حدوثها في دائرة دولية لم يكن قد تسرب اليها شيء من التوفيق ولا التفاهم الحسن . وكانت ثقة صديق بك الشاب بنفسه واعتداده بمواهبه وانه كفء لتهمة الشاقة التي اختير لها كأنهما حكم فاصل في مسألة من هذا القبيل

وفي الحقيقة انه لم يلبث ان ترك لمرؤوسيه في غير ضجة ولا اعلان امثلة عليا في النشاط والمثابرة على العمل والذكاء . وتجلى ذكاؤه على الاخص في الاحوال الدقيقة التي كان لا بدَّ فيها من تأييد مذهب التوفيق بين النزعات المختلفة والمتناقضة التي تصدر عادة من هيئة دولية

***

وثم ميزة اخرى أجلّ من كل ماتقدم وهي المدة القصيرة التي استطاع فيها مدير البلدية الشاب ان يكتسب مع ثقة الاهلين اعجاب اولئك الذين ارادوا ان يعترضوا سبيله الى الادارة بزعم انه شاب . وقتئذ تبين ان شباب صديق بك مفخرة ومجد لشخصيته ولجميع الذين رأوا فيه الرجل الصالح لادارة البلدية . وكذلك دلت اعمال صديق بك على انه من اولئك الافذاذ الذين لم تفسدهم حدة الشباب في هذا الوسط الخداع المرتطم في كل انواع اللهو والحماقات . وانه من الذين تنمو فيهم العقول قبل ان تكتمل اجسامهم ، وتشيب ارواحهم وهم لا يزالون في انضر مراحل العمر ، فانت لا تراه الا مسترسلاً في عمله ، متوفراً على شؤونه ، يعمل بدأب وثبات مستعيناً بمبادىء النظام والترتيب والارادة الحسنة . وهذه المزايا العملية تتطلب اعصاباً ساكنة ثابتة لا تستفز ، وقلوباً هادئة لا تستطار ، والنظام من الصفات التي لا تنضج الا في الشيوخ والمكتملين في العمر ، لانهم جاوزوا حدود الشباب ، وهو في الغالب دور التقلب والقلق والاضطراب ، لان الاعصاب لا تستطيع اذ ذاك ان تسكن الى الهدوء الذي يطلبهُ النظام ، ولا تحتمل الجمود على طريقة خاصة لا تغير فيها ولا تحويل . ولكن الطبيعة — لغرض من اغراضها — لا تخلق قانوناً الا فتحت له باباً لمحاجّتها فيهِ ومحاورتها ، فهي تضع لكل سنّة من سننها شذوذاً ، ولكل ناموس صلب من نواميسها عجائب وفروقاً ، لان مبدأ الطبيعة ان تعمل على التحير والادهاش والاغراب ، لكي يبقى سرُّ الكون ابد الدهر مكتوماً . ولذلك كان غريباً حقاً ان يكون صديق بك وهو في السن الباكرة الناضرة يجري في عمله بقوة الرجل الذي قطع المراحل الكبيرة من العمر حنكة وتجربة ودرساً لاخلاق الحياة واسرارها ، ولكن

القوة الاهلية بعد تدبير في الطبيقة على مبدأ التعويض ، ففي وسط المئات من الشبان الطائشين الخفاف الاحلام المسمنين في سبل اللهو وطرائقه ،تأبى الا ان تنتخ قلائل من الشبان الصالحين الكبار النفوس المحترمين واجب الحياة ، ومن هنا كان صديق بك وامثاله هم هؤلاء القلائل الذين تريد القوة الاهلية ان تعوض بهم من فساد غيرهم

ويظهر ان اقتران منصب صديق بك بمسائل الاصلاح والصحة والتجميل وهي مسائل انسانية قد وافقت مزاج المدير الشاب فاتضح مواهبهُ ودلَّ على قوة رأيهِ لاسيما عندما يحتدم الجدل في القومسيون فيشترك برأيهِ للتوفيق او للفصل ، وهو اذ يتكلم لا يندفع في القول بادىء ذي بدء ولا يرفع صوتهُ ، فالكلام بطيء والعبارات مفصلة ، ولكن لا يلبث حتى يعلو ويتدفق ثم ينفجر ويتعاظم ، لا يردده سوى ثباته ، ولا تحركه سوى الارادة التي يعبر عنها ، وهو صوت لا سحر في نبراته ، بل يكاد يكون أجش قليلاً ، ولكنهُ لا يتصنع ولا يترفق ، ولا يداعب الالفاظ ، بل يتجه الى القلوب توًّا فيغزوها ، وينفذ الى سويدائها ، وكلما علت المناقشات ، وارتفعت الجلبة سحقها هو ببيانه . وهكذا تظل كلمته هي العليا

***

وصديق بك رجل هادىء جذاب . تستطيع ان تتبين مواهبهُ وطباعه من ملامحه ،وهو دائمًا الرجل الذي يعرف حدود مسؤوليته،وتمُّ حدة نظره على ذكائه وبصيرته وهو اذا حدثك بالفرنسية لا تستطيع ان تفرقهُ عن ابناء هذه اللغة ، ويجيد ان الفرنسية الانجليزية والالمانية عدا العربية التي تستطيع ان تؤيد انهُ متين الديباجة فيها حتى انهُ يفوز باعجابك ويحملك على الدهشة كلما تولى تصحيح خطأ المترجمين في الجلسات ويسرك ان تستمع منهُ التعبير العربي ترجمة لصيغة فرنسية فذة ، وهو بعد المدير الذي يحق له ان يعوّل على مرؤوسيه ولكنهُ استطاع بمواهبهِ ان يكون في كل موقف عنوان الكفاية فلا تفوته كبيرة ولا صغيرة

ولم يكن من المستغرب ان تكون روح الارادة والنظام في شخصية صديق بك توازي الفطرة القانونية ، فهو قانوني واداري من الطراز الاول،لا يعول في شيء من الاعمال الا على رأيه ، وهو بذلك يضرب المثل لكثير من مرؤوسيه الذين تمدمت اعمالهم دون ان يتعمدوا التفرد في آرائها او بحثها . من اجل ذلك كان المدير الذي اكتسب اجلال مرؤوسيه بالمثل والقدوة لا بهيابة المركز

***

وبعد فان كل هذا قليل اذا قورن بالروح السامي الذي اتصف به صديق بك في دائرة التوفيق بين الوطنيين والاجانب من اعضاء القومسيون فقد كان هذا التطور الذي احدثهُ سعادة مدير البلدية في زمن قصير ومهارة لا نظير لها فوزاً مبيناً لمبدأ عمراني وانساني معاً ، هو

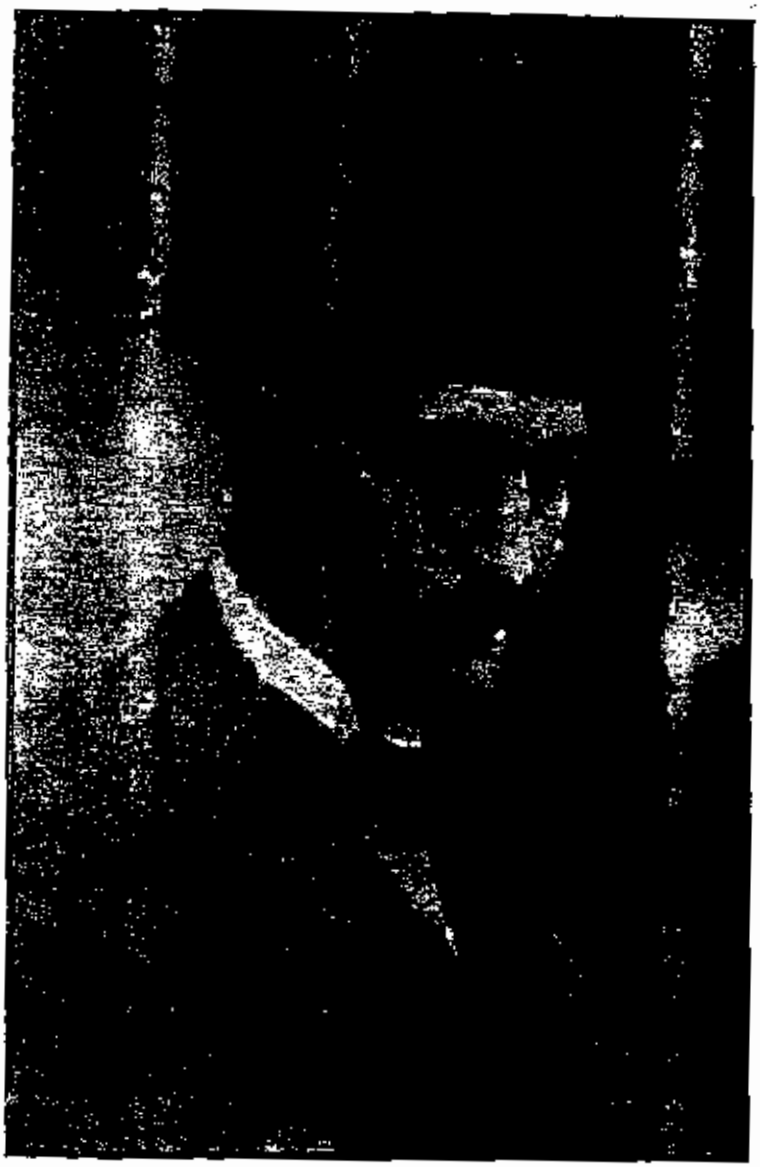

احمد صديق بك مدير بلدية الاسكندرية

مقتطف مارس ١٩٣٣

تمام صفحة ٣٤٣

مبدأ الترقي . وما كان من الممكن السير بأعمال البلدية وتحقيق الاصلاحات اللازمة لمدينة والنهوض بها دون تحقيق هذا التطور

ولقد ادّى صديق بك هذه المهمة الشاقة المجيدة لخير المدينة والاهلين من كل الاجناس . ولما سادت الصبغة الوطنية ادارة البلدية عُدَّ ذلك فتحاً جديداً لمبدأ الذي يسترشد به المدير الشاب في اعماله ، مبدأ التوفيق والقضاء على المناقضات واسباب الارتباك . ولما لوحظ صلاحية هذه البذور في تربة البلدية لمهدها الجديد ، وانها تنبت نبتاً حسناً شرع في اصلاح الاحياء الوطنية وكان حظها من عناية صديق بك عظيماً . وحسبنا ان نراقب ما تحقق من هذه الاصلاحات كتعميم المجاري والعيادات الصحية ومستشفيات الولادة والحميات ومساكن العمال وحمامات الفقراء ومطاعمهم . وكأن صديق بك حين تولى ادارة البلدية كان يحمل برنامجاً معيناً او خطة للاصلاح قد وضعها من قبل على ان الذين يعرفون مدير البلدية وانه الرجل الذي لا يكاد يخطىء اذا ارتجل رأيه لا يسمون برجود ذلك البرنامج وان صديق بك اذا كان منقاداً في كل ما وافق عليه من الاصلاحات الى ارادته الحسنة ورغبته الصادقة في اداء عمل انساني خالد . ولم يكن في كل ما حققه ميالاً الى الضجة او الاعلان بل كان عطفه على الفقراء ، وحبه الجم للعمل الانساني ، يوازي تواضعه وانهُ انما عمل لكي يرضي ضميره ويؤدي عناصر المهمة الثقيلة الملقاة على عاتقه . فهو مثل للرجال الذين يشعرون بقبحاتهم

اما آيات التجميل التي تنسب الى عهد صديق بك والتي تحوّل بها شكل المدينة القديمة وازداد رونقها وبهاؤها فانما تنسب الى ذوق مدير البلدية المثقف المهذب الذي يحمل في ذهنه صوراً شتى من صور العمران ، وما خلقته المدنية الحديثة من البدائع في تجميل المدن وتهذيب رسومها ونظمها ، وقد وضع بذلك القاعدة لتجميل عاصمة القطر الثانية . وقد شهد بحافظ لانكشير بأنها ستكون ذات شهرة عالمية وتوشك ان تسترد مجدها القديم

وكذلك لم يترك ذكاء صديق بك شيئاً في الادارة التي صبغ بالصبغة الوطنية او المدينة التي جعلها آية في الابداع دون ان يترك مثلاً للتجديد

***

اما تمثيل البلدية اخيراً في مؤتمر البلديات فقد اضاف مجداً آخر الى شخصيته الممتازة فقد اعلن عن مصر التي تسير في سبيل الترقي بخطوات الجبابرة ، وكان في صوته لدى ذلك المؤتمر تلك النغمة الحبيبة الى قلوب العمرانيين ، والتي تعرب عن الاشتراك والتضامن

نقولا شكري

لبلوغ المثل الأعلى